

سيرة أخضر

قصته بقلم حسني سيد ربيب

في قلبها الرعب والفرع . انها لم تر العفريت من قبل ، لكنها سمعت
حكايات كثيرة عن هذا العفريت . ان العفريت يربع الناس ويلقي في
صدورهم الخوف والفرع . ولا شك ان هذا السواد المنتشر في الغرفة
يكون عفريتاً . انها خائفة فزعاً . ولهذا ، فان هذا السواد المنتشر هو
العفريت نفسه الذي تسمع عنه . فاشتد ارتجائها ، واصطكت اسنانها
كانها تعاني البرد القارس . ثم تذكرت النور الذي وعدها ابوها به ...

- ولماذا لا تذهب انت الاخر ، كي تأتي بالنور يا ابي ؟!

- اقعد هنا لحمايتكما . فالظلام لا يرحم يا صغيرتي .

فسألته ابتسام :

- ا يوجد معنا عفريت ؟

فابتسم الاب واجابها :

- خرافات ..

خرافات !.. لم تفهم الصغيرة معنى الكلمة ، وسرعان ما نسيتها
واستمالها القظ . انه الشيء الوحيد الذي تراه في هذا الظلام ، فشمعه
ابيض لا يعبا بظلام او عفريت .

ارتفع صوت مفيدة مرة اخرى :

- هذه البنت عنيدة مشاكسة . لا بد ان اؤدبها .

- انها كبرت ، وتشتغل .

- الانها كبيرة تعصي اوامري ؟. كما اني لست في حاجة السي

مساعدها .

- وبماذا نعيش ؟. وكيف ؟.

قالت في تبرم وسخط :

- ان الحرب على الابواب . اتفكر في الحياة ، وانت وسط هذا
القضاء المستعجل ؟.

- يا امرأة لا تتشاهمي . ففي بورسعيد من يحميها .

فصحكت ساخرة :

- من يحميها ؟! ولا نملك غير البنادق الساذجة .

- نحن في بلدنا .. وان لزم الامر نضحى باجسادنا جميعا .

فلتعرفي يا مفيدة هذا جيداً . ان الذي يفزو ارضا يبوء بالخزي والموت .

والذي استمات في الدفاع عن ارضه يزهو بالبشر والسلام .

تابعت ابتسام حديثهما . ولم يزل القظ بين ذراعيها . ورنست

الكلمة الاخيرة في اذنيها فاحست بنفمة خاصة لها . سألت اباها :

- ما هو السلام يا ابي ؟.

لم تتبين ابتسام هذا السرور الذي عمر فؤاد ابيها .. لكنها سمعت

صوته يجيها :

- غصن زيتون اخضر .. وحمامة بيضاء طليقة في السماء .

فرحت الصغيرة بهذه الكلمات ، واستطارت بها . واعتقت :

- كالزراع الخضراء الواسعة التي نراها من نافذة القطار . وكقطي

الابيض الجميل . ان السلام كلمة جميلة . انها لا تخيفني مثلما تخيفني

العفاريت .

- قلت لك يا حبيبتني ، ليس هناك عفاريت .

قالت الطفلة ملتاعة :

- الظلام يخيفني يا ابي . هل الشارع مظلم ؟!

- نعم .

عينا القظ تحملقان في الظلام وتتفحصان وجها صافيا .. وعينا
ابتسام تتفحصان اشياء كثيرة لا تفهمها . انزوت في ركن الغرفة المظلمة،
وتكومت، وفي حجرها يختبئ القظ وانامل يديها تمررها خلال شعره الابيض
الناعم فتشمع بالدفع . ثم شيء ثقيل يربكها ويضطرها الى ان تنسى
حلمها الذي تعيشه وتتلفت حواليتها ، فاذا الخوف يحتل جسدها الصغير .
واذا بأشياء كثيرة تستعصي على تفكيرها .

ومن حولها يدور الهمس حتى يصبح حديثا صريحا لا يعبا بالظلمة
المنتشرة ، ولا بالصمت الذي يعيش في كل ركن ، وفي كل مكان .

جلست مفيدة على اريكة منخفضة ، وظلت تثرثر :

- ان صابرة لم تعد بعد . كان يجب عليها ان تعود في الثالثة من
عملها .. لكنها لم تعد .. والساعة الان جاوزت السادسة . والدنيا ظلام

- لا بد ان الفارة اوقفتها .

- كلا .. ان الفارة بدأت منذ ربع ساعة ، وهي تخرج من المدرسة
في الثانية ظهرا وهذا اقصى تقدير .

قال حلمي وهو يرهف اذنيه لسماع صوت انفجار بعيد :

- لا بد ان نلتمس لها العنبر .

- كلا .. انها ولا شك ذهبت الى عمها . وانا قلت لها مئة مرة

الا تذهب . يا ويلها مني حين تعود .

وابتسام اغمضت عينيها عن هذا اللغو ، حين سمعت امها تتكلم عن
العم ، وكثيرا ما اعتادت منها مثل هذا الكلام .. وايضا سألت اباها عن

معنى هذا .. فكان يهمس في اذنيها : « هذه امور يفهمها الكبار » .

واكتفت ابتسام باحتضان القظ وضمه الى صدرها ، والحدب

عليه .. بينما القظ يستطير بهذا الحنان ، وهذه القوة التي تطوقه
لتنحيمه .. كان القظ يشعر بهذا الحنان .. رغم ما فيه من حصار

لجسده . نظرت ابتسام اليه بعينيها الوادعتين ، كأنما تسأله عما يفيبه .
وتتمنى ان يتكلم ويصف لها شعوره واحساساته . ثم صعدت عينيها

في الظلام اثر صوت اصطدام قوي افزعها وجعلها تتهاك على نفسها .
فلم تتمالك ، فقالت تلقاء نفسها :

- ما هذا الصوت يا ابي ؟.

لعلها تجرأت قليلا في هذا . لكنها احست بالندم لاقائها هذا
السؤال .. ثم سمعت - رغم شعورها بالندم - صوت ابيها :

- انه صوت مدفع ينطلق .. مثل المدافع التي تنطلق صباح كل عيد .

- عيد والدنيا ظلام !

- ليطمئن قلبك يا صغيرتي . فلا شك ان النور سيعم الدنيا .

ولا نرى الظلام ابدا .

شردت الطفلة وتشجعت في محادثة ابيها :

- الدنيا نور . هذا شيء جميل . واين اخي مدحت ؟.

- سيأتي لنا بالنور يا حبيبتني .

وكانت تريد ان تسأله عن صابرة ، لكنها تذكرت امها وهي تحدثه

عن ذهابها الى بيت عمها .. وابتسام لا تدري لماذا تفضب امها وهي
تتكلم عن العم . انها قابلته مرات كثيرة ، وكان يفمرها بفيض من حنانه

. انه هو الذي اتى لها بهذا القظ .. فشاركها وحدتها ، وكان
سلواها . ضمت القظ الى صدرها ثم تلفتت حواليتها فرأت الظلام ينتشر

في الغرفة كالعفريت . فاقشعر بدننها ، وهالته كلمة « عفريت » ، والقت

تشبثت الطفلة بقطها وضمته اكثر الى صدرها . وباحت لابيها :

- انسي خائفة .

- تذكري الله . فالله هو مالك ارضنا كلها .. هو خالق المزارع

الخضراء .. وخالق القطط البيضاء .

تمتعت ابتسام في صوت خاشع :

- يا رب .. يا رب .. يا رب ..

واسترسلت في مناجاة الله . والقط الابيض هادىء وادع فسي

حجرها وتضمه بذراعيها الصغيرتين الى صدرها ، فتشعر بالحب والدفء

والراحة . نسيت الظلام ، والعفاريث ، وعمها الذي تبغضه امها ..

نسيت كل هذا واجفلت عينها وراحت في سبات عميق .. والدنيا تعج

في الظلام .. وصوت القنابل يدوي . وازيز الطائرات يؤلم الاذان ..

والصرخات تدوي من نواح مختلفة .. ولكن ابتسام تركت كل هذا ونامت

والقط الابيض بين يديها .. نامت وراودتها احلام جميلة .. ورات

نفسها جالسة ومن حولها قطط بيضاء .. ورات عالمها كله قططا بيضاء ..

والحمام يطير في السماء .. والمزارع الخضراء الواسعة تمتد حتى

تفرش الدنيا كلها .

نامت الصغيرة ابتسام ، واخذت تحلم بالنور بينما الدنيا تعج في

الظلام وبور سعيد كلها تقاوم الغزاة . ومفيدة لا تكف عن الحديث رغم

الظلام الذي يملأ الدنيا : وتضايق حلمي من ثررتها وقال في نفاذ صبر :

- لا يحق لك ان تصيبي حقدك كله على اخي .. انك امرأة طيبة ،

ولولا هذا لما غفرت لك هذه الثرثرة الفارغة .. بور سعيد تحارب وانت

تثرثرين . يجب ان تفهمي ان هذه الثرثرة لن تحقق النصر لمصر . ان

اخي اخطأ فعلا ، ولكنه اعتذر لي واحب ان تكون على علاقة ودية ، لكن

عجرفتك تمنع . ان الله يغفر الذنوب .. وانت لا تغفري اخطاء بسيطة .

يا عزيزتي مفيدة . ان الوقت وقت كفاح ، علينا ان نتماسك .. ويجب

ان تؤدي دورك في المعركة .

سألته :

- اي دور ؟!

قال لها حلمي :

- افعلي أي شيء تقدرين على فعله . ان العدو لن ينام . وانتوق

ان الحرب ستستمر . فهذه اول غارة .. لكنها بداية الفدر ، وعلينا

ان نكون على حذر . واني من الفدر سأذهب الى مركز المقاومة الشعبية .

وسأندرب على حمل السلاح . البلد بلدنا يا مفيدة . وعلينا ان نضحي

من اجل ابتسام ، ومن اجل قطها الابيض ومن اجل السلام ، والحياة ..

من اجل النور الذي تحلم به طفلتنا الصغيرة .

واضاعت المدينة . فابتسمت مفيدة .

- ان الظلام مميت ، ورهيب .. لكن كما قلت انت ، لن نهنا بالنور

بعد اليوم الا بالكفاح . اذهب انت في الفدر لحمل السلاح ، وسأكون انا

في بيتي اتولى حمايته . اما اخوك ! .. ماذا اقول ! .. لا شيء ..

لا شيء .. ولكن اذا جاء الان او غد او اي وقت .. فسأكون سعيدة .

مرت لحظات صمت قصيرة ، ثم سمعا صوت خيطات على الباب ..

فقامت مفيدة لفتحه . فوجدت صابرة تدخل مبتسمة .. فقالت لها :

- كنت عند عمك ..

- وماذا في ذلك ؟

فابتسمت الام :

- لا شيء . اني مسرورة بذلك . متى يجيء لنا ؟

قالت صابرة دهشة :

- يجيء لنا !

اجابتها الام :

- لا تدهشي يا صابرة . ان عمك رجل مخلص لنا ووفى .. ان

الغارة الريبة ارجعتني الى الصواب .

ثم دخل مدحت وحيا اسرته ، فسأله ابوه :

- اين كنت ؟

- لا تخش شيئا يا ابي . لقد قيدت اسمي في المقاومة الشعبية .

فلا بد من ان نستعد ونتعاون وتكافح ، كي يكتب الله لنا النصر .

فابتسمت صابرة وقالت لاختها :

- صحيح يا مدحت .. وانا قيدت اسمي في الدفاع المدني .

قال الاب مسرورا :

- وغدا الحفكنا انا الاخر .

ثم فوجئوا بصفارة الانذار تنطلق ثانية . فأسرعوا الى اطفاء النور .

وصمت الجميع وهم ينصتون الى ازيز الطائرات ، وانفجار القنابل ،

وقصف المدافع .

✱

وظلت بور سعيد تكافح في ليها ونهارها . واحال الاهالي مدينتهم

مقبرة ضمت جثث المعتدين . ظلت بور سعيد تكافح بالحديد والنار ،

لا يرهبا قانون القوة . ظلت بور سعيد تحارب من بيت الى بيت ، ومن

شارع الى شارع . ظلت بور سعيد تقاتل وكل اهله يدافعون ، وكلهم

حماس وانتقام وايمان .

وانتصرت الحياة في بور سعيد ..

✱

وفي اليوم الثالث والعشرين من ديسمبر عام ١٩٥٦ ، تظهرت بور

سعيد من اذنان الجنود الغزاة . واحتفلت المدينة بانتصارها . وذهبت

مفيدة في يوم النصر الى بيت اخي زوجها .. وذهب حلمي معها ..

وصابرة .. ومدحت .. واصطحبوا معهم ابتسام الصغيرة والقط الابيض

تضمه الى صدرها وابتسام مشرقة تفزو محياها كله .

جلست ابتسام مع قطها الابيض في حديقة بيت عمها .. وحولها

زرع اخضر .. وفي السماء حمام طليق يشارك المدينة فرحة انتصارها .

حسني سيد لبيب

(القاهرة)

شعر

من منشورات دار الآداب

ق.ل

٣٥٠

للشاعر القروي

الاعاصير

٢٠٠

لفدوى طوقان

وحدي مع الايام

٣٠٠

لفدوى طوقان

وجدتها

٢٥٠

لفدوى طوقان

اعطنا حبا

٢٠٠

لاحمد ع. حجازي

مدينة بلا قلب

٢٠٠

لشفيق معلوف

عينك مهرجان

٣٠٠

عبد الباسط الصوفي

ايبات ريفية

٣٠٠

لسليمان العيسى

ايبات مؤرقة

٢٠٠

فواز عيد

في شمسي دوار

٢٠٠

هلال ناجي

الفجرات يا عراق

٢٠٠

عدنان الراوي

المشائق والسلام

٢٠٠

خالد الشواف

حذاء وغناء